مقدمة المؤلف

بنيت القصة التالية على عدد كبير من الرسائل الخاصة التى تبادلها اثنان من رجال الأعمال فى القرن التاسع عشر، أحدهما هو «الفرد أندريه» Alfred Andre أحد كبار رجال المال الدوليين، والآخر «إدوارد ديرفيو» Edward Dervieu أحد المولين الخصوصيين لخديوى مصر. وقد وصل عدد تلك الرسائل التى تغطى الفترة ما بين عامى ١٨٥٨، ١٨٦٨ إلى ما ينوف على مائة الرسالة وكان نصيب أندريه منها أقل من النصف. ولقد كان أندريه بدقته المنهجية يحتفظ بنسخ من الرسائل التى يرسلها، قبل اختراع الآلة الكاتبة بزمن بعيد. وهذه الرسائل طويلة بحيث يصل طول الرسالة فى بعض الأحيان إلى ست أو سبع صفحات كما أنها كانت تتميز بالوضوح والصراحة التامة، ويمكن القول بوجه عام أن هذه الرسائل توحى بالحديث الشخصى المباشر الصريح أكثر مما توحى بالتبادل المدروس للأفكار على الورق.

وقد وجدت تلك الرسائل فى إحدى حجرات أرشيف بنك فرنسا حيث كانت محفوظة مع السجلات التجارية لبنك أندريه، وهو الآن بنك دى نيفليز شلومبرجر وشركاه. وقد أثبت موظفو تلك الشركة سعة أفقهم إذ إنهم كانوا من الكرم بدرجة أنهم سمحوا لأجنبى مثلى بدخول حجرات الأرشيف، خارجين بذلك عن تقاليد فرنسا التجارية. وإنى مدين فى ذلك بوجه خاص للسيدين كوستا دى بورجارد وكرستيان مونيير اللذين تخطيا بكرمهما ومساعداتهما القيمة حدود الضيافة.

وقد يكون من السهل تأليف كتاب عن تلك الرسائل، التى تعد المؤرخ بخيط جاهز لقصة. ولكن من ناحية أخرى فإن وجود ذلك الخيط سلفًا يطرح مشاكل خاصة. فالكاتب يجد نفسه مضطرًا إلى أن يتتبع هذا الخيط وينسج حوله، وبذلك يجد نفسه فى بعض الأحيان فى أماكن غريبة غير متوقعة، باحثًا عن مواد ربما كان يتجاهلها أو يهملها لولا هذا الخيط. وفى الواقع تفرض الخطابات فى حد ذاتها على المؤرخ البحث، إذ إن عليه أن يقدم المعلومات الضرورية حتى تصبح الرسائل مفهومة داخلياً فى تسلسلها وفى محتوياتها الكلية.

وقد أثارت رسائل «أندريه – ديرفيو» صعوبات جدية. والواقع أن العلاقة بين الرجلين تصبح مفهومة من خلال الإطار الثلاثى الذى يربط بين مهنة البنوك، والعلاقات الاقتصادية، ومركز مصر عام ١٨٦٠. ومن المستحيل فهم أى الرجلين إلا إذا عرفنا مركز كل منهما فى شبكة الشئون المالية العالمية واسعة النطاق، ويستحيل تقدير اهتماهما بإحدى الدول– وهى فى هذه الحالة إحدى دول الشرق الأدنى– دون الإلمام بازدهار الشركات فى هذه السنوات، والتأثير

المدمر لذلك على توازن مهنة كانت فى العادة متواضعة. وتزايد اهتمام رأس المال الأوروبى (خصوصًا البريطانى) بالاستثمار فى الخارج. ويستحيل كذلك أن نفهم نجاح هذه الشركات وفشلها فى مصر دون أن نأخذ فى الاعتبار تأثير رواج القطن على الاقتصاد المصرى ومركز الرجل الغربى فى المجتمع المصرى.

تلك الاحتياجات هى التى حددت تنظيم هذه الدراسة. وقد خصصت الفصول الثلاثة الأولى لإعداد المسرح، أى تقديم إطار للقارئ يمكن من خلاله أن تكون قصة ديرفيو وأندريه مفهومة. فإذا كان الفصلان الأولان على الخصوص طويلين ومزدحمين إلى حد ما، فإن سبب ذلك يعود إلى أنه لا يوجد تحليل آخر مشابه، لا عن تركيب المالية الدولية ولا عن توسع رأس المال الأوربى فى فترة عام ١٨٦٠. ولقد كان من الممكن أن نبدأ بالقصة أولا ثم نقطعها بعد قليل ونخرج عن الموضوع من حين لآخر للدخول فى شرح طويل وهذا ما لم نستسغه. وقد حاولت هنا أن أقلد المصور السينمائى الذى يقدم أولا منظرًا بانوراميا قبل أن يدخل فى الموضوع الأساسى.

وبوجه عام فقد بُذلت مجهودات كبيرة لكى نزيل من هذه الفصول الأولى كل ما ليس له صلة مباشرة بالقصة. ولم يكن تحقيق ذلك من الممكن دائمًا، والسبب فى ذلك يرجع إلى أن التعميمات المقدمة تتعارض إلى حد ما مع التفسير التقليدى للتاريخ الاقتصادى وهذا ما يحتاج إلى تأييد- ولنأخذ على سبيل المثال تحليل الثورة المالية فى الفترة ١٨٥٠- ١٨٧٠ وتقييمها وتوقيت آثارها على الكيان المصرفى القائم- فالتركيز لا يمكن الحصول عليه أحيانًا إلا إذا ضحينا بالدقة والمنطق والجو العام، بعدم الخوض فى الحديث عن الظروف والعوامل. والجو العام لهذه المرحلة هو أحد الأهداف الأولية لهذه الفصول الأولى.

ويجب أن نوضح هنا أنه على الرغم من أن الفصول الأولى الخاصة بالشئون المالية قد سبقت لأسباب تنظيمية قصة ديرفيو إلا أن المنطق يجعل هذا الفصل تطوراً طبيعياً لهذه المراسلات. فهى تمثل جهداً فى ذاته لدراسة بناء الأعمال المصرفية العالمية فى منتصف القرن التاسع عشر. ولكنه يسترشد ويستلهم مواده من أرشيف بنك Neufize وغيره من المصادر الأخرى الهامة المشابهة.

فوضع هذه الفصول إذن لا يعنى الرغبة فى تقديم قضية معينة فى ضوء إطار عام سبق تصوره، بل إن الصورة العامة مأخوذة من هذه القضية وقضايا أخرى معينة يمكن بسهولة أن تتقدم القصة أو تأتى فى مؤخرتها، لو لم تكن هناك عقبات فى فهم المراسلات.

ومع ذلك فواجب المؤرخ ليس مجرد تقديم رسائله وإحاطتها بتلك المواد التى توضحها، بل يجب عليه أن يستخلص من هذه الرسائل أقصى ما يمكن استخلاصه من المعلومات ويظهر بقدر

الإمكان دلالتها للقوى التاريخية الكبرى، والتى تعتبر هذه الرسائل تعبيرًا خاصًا لها. ولما كانت رسائل ألفريد أندريه وإدوار درفيو لا تفهم إلا ضمن أبعاد كثيرة، كان معنى ذلك أن دلالتها مضاعفة، وعلى المؤرخ إذن أن يتتبع مرة أخرى الاتجاه الذى يؤدى إليه الخيط. ومن ناحية فإن هذه الخطابات، على قدر معلوماتى، تقدم للمؤرخ الاقتصادى فرصة النظرة الثاقبة المباشرة إلى طرق ودوافع القوى المالية الدولية كما يراها شخصان مستقلان من ذوى المراكز العالية. وفى نفس الوقت فإنها تلقى ضوءاً على التباين فى التصرف فى الشئون المالية بين شخصين يختلفان اختلافا تمامًا فى النشأة والشخصية. وتقدم دليلاً مقنعًا لأهمية العنصر الإنسانى المنفذ فى تحديد سرعة واتجاه التطور الاقتصادى.

وتعتبر الرسائل من ناحية أخرى وثيقة فى تاريخ الامبريالية، كما أنها تقدم للمؤرخ السياسى والدبلوماسى الدليل المباشر على الدور الذى لعبه رجال الأعمال الأوروبيون فى نشأة الدين المصرى، كما تلقى ضوءًا جديدًا على مسئولية الخديوى فى الإفلاس الأخير. وهى بالإضافة إلى الأرشيف الديبلوماسى لهذه المرحلة تعطى صورة واضحة عن الصلة الوثيقة الشاذة بين ضغط الدوائر السياسية والمالية من أجل تحقيق أهداف خاصة، كما تبين التوافق والتضارب بين المصالح الشخصية والوطنية وكذلك الاختلافات الهامة فى الأهداف والوسائل من دولة لأخرى، ومن قنصل لآخر، وبالاختصار فإنها تعطى قوى تاريخية كبيرة توصف غالبًا بطريقة سطحية رتيبة، عمقًا وتنوعًا.

واليوم بالطبع، عندما أصبحت الإمبريالية كلمة قذرة، وعندما أصبحت علاقة الدول الأوروبية بالعالم الإسلامى تثير قلق الجميع فإن قصة ديرفيو تزداد أهميتها. أولا: لأنها تقدم لنا عدداً من الموضوعات المحددة- مسألة قناة السويس مثلا - التى استعادت كل أهميتها التى كانت لها فى القرن الماضى، نتيجة الأحداث القريبة. ثم سبب آخر وهو أن أهميتها أبعد من أن تتعلق بمصر وحدها. إن أمامنا فى حيز ضئيل معظم المشاكل الكبرى التى مازالت تواجه كل لقاء بين الشرق والغرب: التباين المادى والتكنولوجى، عدم المساواة السياسية، المناورات والتدبير فى الشئون التجارية والمالية، وأكثر من ذلك كله العجز عن فهم الأوضاع الاجتماعية والثقافية. إن تسلل أوروبا المتوسعة فى العصر الصناعى الجديد إلى مصر فى القرن التاسع عشر لم يكن نموذجًا لأساليب الالتفاف حول الشرق فحسب ولكنه كان بداية مرحلة جادة جدا لإحدى مآسى التاريخ فى الألف سنة الماضية: مأساة التقاء حضارتين.

وما زالت هذه الفترة تكشف عن نفسها. ومن دراسة خبرة ديرفيو يمكننا أن نتعلم شيئًا عن عصرنا. والحق أننا نتعلم من هذا شيئًا أكبر مما تعلمه لنا الأحداث الجارية. وهكذا فإن

المصادر (الخاصة والعامة) التى حصلنا عليها من القرن الماضى تفصح بصراحة – وأحيانًا بسذاجة – عما لا يمكن قبوله اليوم. وفى نفس الوقت فإننا نرى بداية التمثيلية عندما كان ستار المسرح مازال مسدلا والصراع ما زال فى بدايته، كما نحس بعمق الهوة بين عالمين وعبث المشاركة بين شريكين غير متكافئين ، وصعوبة المهمة التى تواجهنا اليوم. ويبدو أحيانًا ونحن فى القرن العشرين أننا نعيش فى عالم من الفانتازيا الذلقة: شعارات سهلة، ابتسامات سريعة، إخلاص متدفق، وتفاؤل السياسيين الذين يفكرون ويتكلمون ويتصرفون بما تمليه عليهم العلاقات العامة. ومن حسن الحظ أنه لا يوجد مثل التاريخ معلمًا للناس كى يواجهوا الحقائق. وقد بُذل مجهود فى هذا المجلد لإظهار الجوانب المختلفة للمراسلات التى تمت بين أندريه، وديرفيو ومعناها، غير أن تناول هذه الجوانب كان خاضعاً من ناحية المبدأ لتطور القصة التى تفصح عن نفسها. أما الفصول الأخيرة والخاتمة فهى لا تتعلق كثيراً بالتحليل الاقتصادى والسياسى التفصيلى بقدر ما تتعلق بعبرة القصة. ذلك أن ظهور ديرفيو وسقوطه فى مصر يعتبر فى حد ذاته قصة جيدة لها عناصر الدراما الهامة وعيوبها أيضاً. وهى تستحق التناول بهذا الشكل ولا سيما أن المؤرخ الاقتصادى لا يجد فى الغالب متعة العمل فى مثل هذه الموضوعات أو مزاياه.

***

وانى أنتهز هذه الفرصة لكى أعبر عن شكرى لكل أولئك الذين ساهموا فكريًا وماديًا فى إظهار هذه القصة إلى الوجود. إن الكتاب فى الواقع نتاج ثانوى لدراسة أوسع عن الدور الذى لعبه رجل الأعمال فى التطور الاقتصادى الفرنسى. وقد عثر على وثائق القصة خلال القيام ببعثة بحوث عام ١٩٤٨– ١٩٤٩ تمولها جامعة هارفارد ولجنة البحوث فى التاريخ الاقتصادى. وقد استطعت بفضل معونة جمعية الزملاء بجامعة هارفارد أن أقوم بأعمال أكبر فى أوروبا عام ١٩٥٢-١٩٥٣ ثم مكنتنى معونة مجلس أبحاث العلوم الاجتماعية من أن أقوم برحلة أخرى فى صيف عام ١٩٥٥ لبحث بعض النقاط المعلقة وحسمها. وخلال هذه الفترة أمكن تسهيل هذا البحث وغيره من الأبحاث من وقت لآخر بواسطة المنح التى كانت تقدمها جمعية الأبحاث الاجتماعية والعلمية ومؤسسة فورد ومنحة الزمالة فى مركز الدراسات العالية فى علوم السلوك. وآمل أن يكون هذا التاريخ تعويضًا جزئيًا عن الصبر والعطف اللذين منحتنى إياهما هذه الهيئات.

وفى فرنسا فإنى مدين بالشكر لكوستادى برجارد M.H. Costa de Beauregard موظفى بنك دى نيفليز، شلومبرجو وشركاه De Neuflize. Schlumberger el Cie الذين تخطى عونهم وفهمهم

حدود الضيافة والكرم. ولعل هذا المثل فى الاستنارة يكون نموذجًا وشجعًا للآخرين. وإنى مدين بالشكر أيضًا للسيدين ميشيل فرانسوا وبرتراند جيل Michel Francais,Birtrand Gill اللذين يعملان فى الأرشيف القومى بفرنسا واللذين سهلا لى العمل فى قسمهما الجديد المتعلق بالأرشيف الاقتصادى والخاص فى أفضل الظروف ودون اعتبار للوقت. وأشكر كذلك السيدة أوزامان Ozaman التى تعمل فى وزارة الخارجية الفرنسية لتعاونها فى البحث والحصول على مستندات لم تكن مدرجة «بالكتالوج»، ولكثيرين غيرهم يصعب حصر أسمائهم هنا ولكنهم بطريقة أو بأخرى أضافوا شيئاً إلى هذه الدراسة وعلى الخصوص م. جيل M.Gille الذى ساهم مساهمة كبيرة، فهو الذى أعد نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة من المراسلات وذلك عندما اضطررت إلى مغادرة فرنسا عام ١٩٤٩ قبل أن أتمكن من قراءتها كلها، وقد استمر كذلك فى إمدادى بمعلوماته التى لا تبارى عن مصادر الأرشيف الخاصة بالتاريخ الاقتصادى لفرنسا.

وفى إنجلترا، قرأ المرحوم بول هـ. إيمدن الفصول الأولى الخاصة بالأعمال المصرفية وأمدنى بمعلومات قيمة عن تاريخ حياة بعض الذين لهم دور فى هذه القصة. وكان السيد كينيث جوشين Kenueth Goschen من الكرم إلى حد أنه سمح لى بالاطلاع على السجلات الخاصة بشركة عائلته وهى فروهلين وجوشن. Fruhling&Goschen وهم أول من دفع بالأوراق المالية المصرية فى سوق لندن.

وفى الولايات المتحدة الأمريكية قام السيد كارل لوك Carl Lokke من الأرشيف القومى بمساعدتى على البحث فى سجلات القنصلية المصرية. وفى نفس الوقت قدم عدد كبير من المدرسين والأصدقاء لهذا الكتاب فوائد جليلة بقراءة ونقد جزء أو كل المخطوط. ومن بين الذين جادوا بوقتهم ومعلوماتهم الأساتذة هرج إيتكن سيجموند Haugh Aitken Sigmmd وستانلى شتاين Stanley Stein فى مركز الأبحاث فى جامعة هارفرد والسيدة Diamond الأستاذة حرم رالف هيدى Ralph Hidy من جامعة نيويورك فى مدينة نيويورك. والسيد برونر F.H. Brumer من Arnhold و Bleichrodea من أصحاب البنوك التجارية. والدكتور فرتز ريدليك Fritz Redlick من جامعة هارفرد الذى قرأ الفصول الخاصة بالبنوك واقترح عديدا من التصحيحات والتحسينات. وقد ساعدت الأستاذة هلين رفليى Helen Rivliu من جامعة مارى لاند فى تلك الموضوعات الخاصة بماضى مصر، وهى من الموضوعات التى كنت أحتاج فيها إلى النصيحة، والسادة هوج ميلين Hugh Meleau وجورج سوليس George Soulis وهما عضوان فى جمعية الزملاء بجامعة هارفود وقد لفتا نظرى إلى– كما ترجما لى – بعض المواد عن الروسية واليونانية. وقد قام البروفسور ليلاند جنكز Leland H.Jenks من كلية ولزلى بقراءة المخطوط بأكمله مختصرًا

بعض النقاط محسنًا فى الأخرى وكانت انتقاداته فى مجموعها ذات قيمة كبيرة فى الإيضاح : إلى هؤلاء جميعًا أقدم أخلص شكرى.

ثم هناك هؤلاء الذين ساهموا بأشكال أخرى.. السيدة كالستا أوبيرت التى أعدت معظم فهرس الأسماء، وابنتى جين التى ساهمت فى تصحيح المخطوط. وفوق كل هؤلاء الآنسة مارى فرنسواز بيريت كودو التى سهلت بعنايتها وفكرها مهمة البحث منذ رحلتى الأولى إلى فرنسا عام ١٩٤٨.

وأخيرًا فإننى مدين بالشكر بصفة خاصة لصديقين ومدرسين لى: دكتور آرثر كول من جامعة هارفارد. والأستاذ دونالد ماكاى الأستاذ السابق بجامعة هارفارد وحاليا بكلية أمهرست: إنهما لم يساعدا فى هذا البحث فحسب، بل ساعدانى وشجعانى بكل طريقة منذ بدء تخرجى فى الجامعة وتدريبى فى البحوث. ولقد تم إنجاز البحث الموجود فى هذا الكتاب تحت توجيههما، وبدونهما لم يكن من الممكن لهذه القصة أن تكتب.